



عبد الله المقبالي

الحاجة أم التأويل . . في جدلية العلاقة بين العنف والنص المقدس

بتساؤل عميق عما إذا كانت هناك بعض الديانات مسؤولة أكثر من غيرها عن تعزيز أنساق العنف في المجتمعات الإنسانية، يفتح المستشرق الألماني توماس شيفلر مقاله الذي نقله إلى العربية حسن شقير الأكاديمي بجامعة السلطان قابوس. هذا التساؤل يبدو رتيباً، ومكرراً للوهلة الأولى خاض فيه كثر قبله، وبعده، ولعل أبرز ما لدينا - عربياً - كتاب يوسف زيدان الموسوم "اللاهوت العربي وأصول العنف الديني". لكن مقال شيفلر نحا طريقاً آخر، ناقش فيه تطويع النص المقدس وفق الأهواء والاحتياجات السياسية والاجتماعية على حد سواء، وفق ما يحمله من عنف كامن .

تكنم في اختلاط العنف بالحب كما ورد في سفر الرومان "فإن جاع عدوك فأطعمه، وإن عطش فاسقه" فهي على ظاهرها دعوة للإحسان للعدو، لكن تكلمة النص تقول: "لأنك إن فعلت هذا تجمع جمر نار على رأسه". هذا الحب والكره ليس اعتباطياً في نظر شيفلر بل يصنع المعجزات، وقد أسهما بفاعلية في نشر المسيحية الأولى، بل وكان نقل مسرح الحرب إلى مجال الحرب النفسية ضد القوى الشريرة، والشعوب الشيطانية خياراً جذاباً لأولئك الناس الذين تجنبوا مخاطر التمرد العنيف ضد السلطة الرومانية.

وفي القسم الثالث والأخير، الذي صدره بعنوان عنف السيطرة والقانون الإلهي، تحدث عن علاقة المسلمين بالعنف عبر نصوصهم المقدسة، حيث كان وضعهم مختلفاً نسبياً عن اليهود والمسيحيين، فقد نشأت دولته وقويت في ظل فترة وجيزة، ولم يحلموا بالعنف، بل كان العنف واقعه الذي عليهم معاشته وتنظيم استعماله في الحياة اليومية. وقد كان للانتصارات والفتوحات دور في إشاعة جو من التفاؤل بين المسلمين الأوائل على عكس منظور يهودية ما قبل النفي والنصرانية الأولى. وحتى نهاية العالم الوشيكة والمدمرة عند المسلمين هي أكثر رافة ورحمة ولا يطال عذابها إلا الكافرين. وهي ليست تدميراً للعالم الأثم بقدر ما هي سعي لجعل البشر يتوافقون مع ناموس الإلهي. لكن كل هذا التصالح مع الذات ومع الآخر عند المسلمين بدأ يتحول عند المسلمين إلى عنف وقسوة مع مرور الزمن. ويرى شيفلر أيضاً ما كان الإسلام استثناءً للقاعدة لولا أن سياسته تجاه غير المسلمين تبلورت في فترة نجاح سياسي وليس في عصر الهزائم المحيطة.

وعليه فإن شيفلر كان ينظر إلى العنف كونه صنيعة الهزائم والإحباطات والحاجات السياسية، وليس وليد النص الديني، كما إنّه يبني رؤيته على أن الفكر الديني لاحق للنص الديني وتأويل من تأويلاته وليس من صنيعته. وقد تعمد شيفلر ترك مقاله دون خاتمة أو خلاصة ليجعل الأقف مفتوحاً ويترك الفرصة للقارئ للاستنتاج والاستيعاب.

وناقش فيه بعض النصوص عن المسيحية. وقسم ثالث أخير أسماه "عنف السيطرة والقانون الإلهي" وقد خصصه للنصوص المقدسة عند المسلمين.

يخلص شيفلر في القسم الأول - بعد سلسلة من الاقتباسات من سفر التثنية - إلى نتيجة مفادها أن جمع تاريخ التثنية يعكس فترة الأزمات المتجددة التي يواجهها الإسرائيليون، وقد فقدوا الدولة والأرض، بل تعرضوا أيضاً لخطر الإبادة من الكنعانيين الوثنيين. كما يشير إلى أن سفر التثنية هو تفسير لأسباب أزمة بني إسرائيل وكيفية الخروج منها، حيث سعى سفر التثنية إلى تعليل الأزمات بانحراف بني إسرائيل عن العهد الذي أقامه الرب مع موسى في حوريب. كما علل سقوط المملكتين - مملكتي إسرائيل ويهوذا - والنفي البابلي على أنهما عقاب إلهي لانحراف بني إسرائيل عن الميثاق. وهو ما فسره شيفلر على أنه تحويل الكارثة إلى علامة على حب الرب للغير. ثم يؤكد أنه بينما تاريخ التثنية كان يتشكل، كانت شعوب الكنعانيين - التي خصها سفر التثنية باللعن - قد اختفت منذ زمن بعيد، لكن سرد القصص وإعادة سردها كانت له وظائف وأسبابه، منها تعظيم تاريخ إسرائيل العسكري وقوة الرب يهوه، وإيصال رسالة إلى بني إسرائيل بأن فرصتهم في النجاة تكمن في إبادة الشرك في إسرائيل. ويرى شيفلر أن اللعن والرغبة "المنطقية" في إبادة النساء ما هما إلا انعكاس لرغبة ملحة في التطهير الذاتي.

أما في القسم الثاني الذي حمل عنوان "الحب الكوني والدمار الكوني" فالكاتب يورد اقتباسات من إنجيل لوقا ومتى وبطرس وغيرها للدلالة على أخلاقيات الحب الكوني الشامل، مثل "أحب لأخيك ما تحب لنفسك"، و"أحبوا أعداءكم، أحسنوا إلى مبغضيك، باركوا لاعنيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم"، "لا تنتقموا لأنفسكم أيها الأحباء" ولكنه سرعان ما يستدرك ويبين أن صورة الحب الكوني واللاعنف تبدو نسبية نوعاً ما، حيث إن آخر كتاب من العهد الجديد كان قاسياً جداً حين صور اقتراب نهاية العالم بصورة وحشية وقاسية ومدمرة. ويرى أيضاً أن خطورة نصوص العهد الجديد

الحرب ترتبط بشكل منهجي ومنظم ببعض الأحوال الاقتصادية.

لكن يبدو أن لشيفلر نفسه رأياً آخر يربط العنف بالنص المقدس، حيث هي - النصوص المقدسة - الحافظ الرمزي للذاكرة الجماعية، وهي رمز هوية الجماعة، وجزء رئيس من التعليم ولغة الخطاب العام، وهي مثل صندوق معدات مقدس جاهز للاستعمال القويم وغير القويم بين المؤمنين بها. ويونه شيفلر إلى أن استخدام هذه الأدوات سيأتي حتماً إذا ما دعت الظروف التاريخية، أو الحاجات، أو الضرر. وهو هنا بقوله "أو الضرر" يود تحميل النصوص جزءاً من المسؤولية أيضاً عن العنف. فالنص المقدس حامل لمسوغات العنف متى ما أتحت الفرصة أو دعت الحاجة. لكن هذه ليست فكرة شيفلر الرئيسية التي بنى عليها مقاله، بل أعلن أنه سيسعى جاهداً لإثبات أن العنف العدواني في الكتب المقدسة يمكن قراءته على أنه تعويض عن الشعور بالعجز واليأس بين الذين سجلوها أو نقلوها. من أجل إثبات فكرته فرع شيفلر المقال إلى ثلاثة أقسام كالتالي: قسم اسمه بـ "الغزو الإقليمي والتطهير العرقي والديني" وتحدث فيه عن النصوص المقدسة

عند اليهود، وقسم صدره بعنوان "الحب الكوني والدمار الكوني"

في مقدمة المقال يستثير شيفلر المتلقي عبر دوامة من الآراء المتضاربة والاقتباسات التي تنقض بعضها حول جدلية علاقة الدين بالعنف، ليفنحها بعد ذلك تفصيلاً، لكن ليس وفق الطرق التقليدية في الحجج والمناقشة، فهو يوردها ولا يعود إليها أبداً طيلة ما تبقى من المقال، بل ضمنا عبر إيراد الشواهد والأدلة التاريخية، وعبر استنطاق النصوص المقدسة. نقل في البداية رأي عالم الاجتماع باول هونيجسهايم الذي زعم فيه أن "الديانات المتشائمة - في إشارة إلى الطاوية والبوذية - تميل إلى الإحجام عن العنف، بينما الديانات المتفائلة، الإصلاحية (اليهودية، المسيحية، الإسلام) هي التي تتبنى الحروب الدينية من أجل نشر بركات الديانات الحقة". ودون تنفيذ أو مناقشة، أو حتى تعليق ينتقل بنا شيفلر إلى المحلل النفسي وعالم اللاهوت الكاثوليكي يوجين دريور من الذي بدا رأيه متسقاً مع ما قاله باول هونيجسهايم. ومباشرة يعرج بالمتلقي إلى رودولف روميل الذي ذكر أن العنف والقتل لا يرتبطان بمعايير دينية أو إثنية بقدر ما يرتبطان بغياب الرادع، واستحكام قبضة السلطة على رقاب أبناء المجتمع. كما نقل أيضاً عن

بول كولبير - مدير مجموعة أبحاث التنمية في البنك الدولي - قوله بأن

